... وما زلت أبحث عن شيء ما!

عمر أحمد خليفة

سؤال لاهثٌ لاهبٌ حاصرني بكل قواه، كأنه لا يريد أن ينفك عني، مختزلاً وراءه حكاية ما، حلماً ما، قصة نفض عنها غبار الزمن الغابر عبر سنين طويلة عمرت بالكدح والتعب والجد والانتظار؛ حكايات المدرسة التي ابتدأت بها طالباً في المرحلة الابتدائية بكل ما فيها من ذكريات وأحلام ومتناقضات حتى المرحلة الثانوية.

تلك السنون تعود إليَّ مرة أخرى، لكي تجتاح خيالي الصغير بذكرياتها الكثيرة حتى يومنا هذا، وبعدها كانت الجامعة التي ارتسمت بها معالم النضج والوعي والمستقبل، ومن على عتباتها ومقاعد الدراسة فيها، كانت الأحلام تتراقص، وتبعث أشياء جميلة تنطلق بسرعة البرق، لتحدد لي معالم مستقبلي، لينطلق السؤال فاتحاً فاهه، وماذا بعد الجامعة؟

وأنا في حيرة من أمري، وموجة من التفكير تغزو مفاصل جسدي، وتسبح في أطراف الخيال، ناثرة حولها الملايين من الأسئلة ... وماذا بعد؟ هل أربع سنوات كفيلة بترجمة شيء ما؟ وما هو هذا الشيء؟

وأنا بين هذه الحيرة والغموض والضبابية القاتلة، سمعت صوتاً من هناك يقول بملء فمه «هناك إعلان وضعته دائرة اللغة العربية على حائط بارز أهم ما فيه، على من يجد في نفسه الرغبة في إجراء مقابلة مع مشرفي اللغة العربية في تربية رام الله، التقدم لامتحان المقابلة، وعلى إثرها يتم قبوله معلماً في مدرسة ما.

استهوتني الفكرة، مع أنني لم أعدّ أحزمتي بعد، ولم يكن لدي الحماس الكافي والرغبة الجامحة للتقدم لهذه الوظيفة، وبخاصة أنني أردت أن ارتاح بعض الشيء من عناء الدراسة، وهناك سبب خفي بأن هذه المهنة لا يأتي إليها أحد إلا من عجز عن الخيارات الأخرى.

ولكن، لماذا لا أرمي الصنارة في تلك المياه الراكدة، لعلني اصطاد شيئاً ما؟ وبعد مد وجزر، وأخذ وعطاء، وجدت نفسي أمام مشرف اللغة العربية ليبدأ الامتحان، بل قل يوم الحساب. كانت المقابلة – آنذاك- بسيطة وساذجة، وأسئلة أقل من المستوى المطلوب ... وما زلت أتذكر ذاك السؤال الذي وجهه إليَّ: ماذا ستفعل لو واجهك طالبٌ مشاغبٌ في غرفة الصف؟ ما هو الدواء الذي ستعده لذاك المرض؟ كم وددت في تلك اللحظة أن تكون صيغة السؤال من ذاك السائل الذي خطه الشيب، وظهرت عليه علامات الخبرة ... ماذا ستفعل لو صادفت طالباً متدني التحصيل عاجزاً عن المشاركة وإبداء الرأي، ولكنه لم يسأل، بل اكتفى بأسئلته الروتينية الرتيبة.

وبعد أيام من المقابلة ... ساقني القدر إلى مقر مديرية التربية والتعليم برام الله، ليخبرني أحدهم، مبارك لقد توظفت، وتستطيع أن تباشر عملك في مدرسة ذكور بدرس الثانوية.

يا الله! سأصبح معلماً، وأخيراً يأتي الحلم زاحفاً على قدميه، معلم كلمة جميلة ودلالاتها أجمل، ولكن أسئلة كثيرة اجتاحتني وحاصرتني كشبحٍ، أنت أصبحت معلماً.

يا الله! كلمة سمعتها كأني سمعت صوتاً شلّ حركة تفكيري، ابتعدت عن المديرية وأحاسيس مبعثرة ومتداخلة تلاحق جسدي المنهك من التفكير ... أخذت مفردة المعلم معي لأرجع بها إلى الوراء بعيداً بعيداً لأصطدم بمشاهد كثيرة عن المعلم أتصوره أعيشه، أركّبه كيفما أشاء ... هل لدي القدرة من العبث بالذاكرة من جديد ونفض الغبار عنها؟ أتخيل المعلم وأنا طالب في المدرسة، لم يكن إلا الضابط الناهي الآمر المتعالي الذي لا يخلو جيب قميصه من أقلام حمراء وزرقاء وضعت بعناية فائقة.

حاولت أن أمحو ذاك المشهد من حياة المعلم ولكني، على الرغم من مرور السنين، لم أستطع، كيف لي أن أمحو ذاك المشهد؟ لأنني بعد أيام سأكون بطله إن لم أكن القصة كلها.

وأنا أعيد ترتيب ذاكرتي المليئة بالثقوب أصلاً، استوطنني مشهد لم يغب ولو لحظة واحدة عن مخيلتي ... إذ وقف معلم اللغة العربية يستعرض دفتر التعبير الخاص بي .... شاهراً سيفه كأنه يستعد لخوض معركة ما ... انظروا إلى هذا الطالب ابن الصف الرابع الابتدائي كيف استهل مقدمة الموضوع بكلمة "لا شك" ... وهذا يدل على مهارته في الكتابة ... من حينها أحببت هذا المدرس الذي شجعني على الكتابة ونمّى هذه المهارة بخيالي الصغير ... من وقتها قررت أن أتخصص اللغة العربية، ولم أنسَ في المرحلة الإعدادية إطراء مدرس التربية الدينية، الذي كان بعد كل امتحان يستعرض الأوراق ليقول بملء فمه: انظروا كيف تبدو إجاباته كاملة وشاملة ... .

مدرستي الجميلة، مدرسة ذكور قبيا بسورها العالي وملعبها الواسع وجمالها الفائق، التي درست فيها كل المراحل الدراسية، وهذا الشيء سهل عليَّ كثيراً، فلم تكن هناك مشكلة في المواصلات أو معيقات أخرى، كنت طالباً مجداً ومجتهداً ومحبوباً من كل المعلمين، أحببت المرحلة الابتدائية ببساطتها وعفويتها وبراءتها، وكم كان يسعدني رائحة الكتب الجديدة التي كانت تحمل سراً خاصاً لم نستطه فك رموزه وأسباب جماله إلا بعد مرور زمن طويل.

جاءني خبر نجاحي بالثانوية العامة كصاعقة أيقظت الكهرباء الساكنة بداخلي، حيث أخبرني صديق لي بأنني حصلت على الدرجة الأولى بتقدير جيد جداً، لم تسعني الفرحة حينذاك ... ولا أعرف لماذا حينها كتمت صوت أمي التي أرادت أن تعبر عن فرحها بنجاح ابنها، وكأنني بهذا التصرف كنت أعد لنجاحات أخرى قادمة أكبر وأعلى قيمة من نجاح التوجيهي.

وبعد أن أفقت من تلك الأحلام والمشاهد، ها أنا اليوم في الخامس والعشرين من شهر آب تسلط الكاميرا عدستها عليّ، لنبدأ التصوير وأول المشهد وأول القصة.

البداية كانت جميلة، واختصر علي مدير المدرسة التعريف بنفسي، حيث بدأ بتعريف المعلمين عليّ كمعلم جديد للغة العربية، حيث تبادلنا السلام والتحية، وتحدثنا عن أمور عديدة تتعلق بالطالب والمدرسة، وكان الحديث ودياً ورائعاً.

وبدأ المدير يسهب في نصائحه إليّ كسيل جارف، أنت معلم جديد، وليس لديك خبرة بالطلبة، فما عليك إلا أن تكون حازماً وضابطاً حتى لا تضيع الحصة بين هرج ومرج. ما كان عليّ إلا أن أخضع وقتها لتلك النصائح التي وجهها لي المدير، علما أنها وجهت لي من قبل الأصدقاء والزملاء وذوي الخبرة، ولسان حالهم يقول: حتى تكون أستاذاً ذا شخصية محترمة، يجب أن تكون تلك العصا الغليظة رفيقة دربك في مشوارك التعليمي. وها أنا اليوم أنهج نهج المعلمين، وأشرب من عين الماء نفسها التي شربوا منها، هل سأعيش الدور نفسه؟ أم أنني سأعزف على مقام مغاير للمقام الرسمي، وأدوزن خارج الدوزان العام؟

يا الله ... ها هو الدفتر الأخضر (دفتر التحضير) يعود مرة أخرى

جانب من مشاركة المعلم عمر خليفة في لقاءات التكون المهني في منتدى المعلمين في نعلين.

إلى الذاكرة، الذي طالما سألت عنه وأنا طالب، ما هو هذا الدفتر الذي يرافق المدرس في كل حصة، كجندي لا ترافقه بندقيته؟

هل سأكون مثل ذاك المعلم الذي يضرب ويصرخ ويصدر الأوامر، ويلعن ويشتم تارة، ويندب حظه تارةً أخرى؟

بدأت هذه النصائح تنسج خيوط قصتي شيئاً فشيئاً في مدرسة ذكور بدرس الثانوية، بعد أيام سيكون هناك طابور من المعلمين والطلبة، وسأقف أنا أمام الطابور ولأول مرة، مع أنني كنت أصطف في الطابور مع الطلبة مستمعاً إلى الإذاعة المدرسية بصوت معلم خشن، وأنا في المراحل الدراسية الثلاث.

أسئلة كثيرة تعود على الطاولة من جديد، وتمارس استفزازها لي، ماذا سأفعل في اليوم الأول؟ ومن أين أبدأ؟ وهل سأنجح في مهمتي هذه؟ أم أنني سأتعثر من أول حصة أقوم بها؟

تعرفت على جدول الحصص الخاص بي، وما زلت أتذكر الكم الهائل من الحصص التي وضعت على كاهلي، وكان عددها ثماني وعشرين حصة، وأنا ما زلت أشق طريقي وسط هذه الألغام، ولكن كوني معلماً جديداً، قبلت بهذا الأمر.

وجدت نفسي، ولأول مرة، أقف أمام الطلبة لأبدأ بالتعريف على نفسي، وقراءة دستوري الجديد الذي يجب على الطلبة اتّباعه. بدأت مدججاً بتعليمات المجتمع، وكأنني أملي ما حفظته من كلمات «الطالب الذي يثير الشغب سيعاقب، وسوف نأخذ بحقه أقصى العقوبة. الفوضى ممنوعة داخل الصف. أشد ما أكره الحديث الجانبي».

وأنا أتلو هذا الدستور، أحسست بأنني لست أنا، لا أعامل الناس هكذا، والطلاب جزء من الناس.

تباً لهذا المجتمع الذي يشربنا أشياء لا نرغب فيها. بدأت هكذا وكانت البداية سيئة، كنت عصبي المزاج إلى حد ما، وبدأت الحصص تزحف إليّ كئيبة متكاسلة، فأنا لا أملك الخبرة وأسلوب التدريس الناجح بعد، فجئت إلى المدرسة دون إعداد مسبق أو دبلوم تربوي.

بدأت السنة الأولى من التدريس وأنا حائر متعثر الخطوات، وما زلت أبحث عن السؤال من أين أبدأ؟ بدأت الضبابية تنقشع يوماً بعد يوم، لتكن السنة الثانية أجمل وأفضل، حيث اتضحت خارطة الطريق، فقمت بعلاقات جيدة مع الطلبة، بعد أن قررت كسر دستوري القديم، وهدم تعليمات المجتمع نحو الطالب والتعليم، بدأت خارطة طريق جديدة بالتعامل مع الطلبة، حتى أكسب ودهم واحترامهم لي، وبدأت الأيام تمر سريعاً، لأجد نفسي واحداً منهم، أشاطرهم أفراحهم وأتراحهم وأعيش أحزانهم.

ولم أنسَ ولن أنسى مشهد استشهاد الطالب "سمير" الذي ترك في نفسي أثراً كبيراً، فقد كان طالباً مؤدباً وخلوقاً، طلب الشهادة فاستحقها.

يا الله! كم كان المنهاج ومازال يعلمنا التقليد والجمود، وقراءة كل حرف بداخله، كم وددت أن يعتمد هذا المنهاج على الابتكار والتجديد، لا على الحفظ والتلقين. ولهذه اللحظة لا أعرف ما الذي يجعلني أعيش بجلباب المعلم التقليدي، أحضر دروسي من أجل تقدير مدير أو مشرف، وواضعاً خطة لا أسير عليها، هي خطة وضعت فقط من أجل ذر الرماد في العيون.

ما زال يشغل تفكيري بعد هذه السنوات، وضع الطالب الأكاديمي، وتطوير المهارات لدية في القراءة والكتابة والتعبير الشفوي "وما زالت تقض مضجعي الأساليب التربوية التي تعتمد التلقين والتقليد والحفظ بدلاً من الاعتماد على التجديد والابتكار وتطوير الأفكار، من خلال أساليب الدراما في التعلم، والرسم، واستخدام الصور.

وعلى الرغم من هذا وذاك، ما زلت أبحث عن شيء ما، لا أعرف ما هو؟ شيء فوق العادة وخارج المكان والزمان ... ما زلت أبحث عن شيء يبعث الحياة في نفوس الطلبة، وينشئهم على الابتكار والتجديد.

مدرسة ذكور بدرس الثانوية

جانب من مشاركة المعلم عمر خليفة في لقاءات التكون المهني في منتدى المعلمين في نعلين.